لماذا تصطف بعض النخب العربية مع فتح الله غولن؟

ممدوح الشيخ*

ملخص: نظرَ بعض العرب إلى المحاولة الانقلابية في تركيا ومدبّرها فتح الله غولن بخليط من عدم المعرفة بتركيا واللحظة الراهنة؛لهذا السبب، امتلأ الخطاب العام لبعض الجهات بأمل في نجاح المحاولة الانقلابية، وقد بدت صورة غولن في كثير من خطابات التضامن، ثم لاحقًافي الدعوات المصرية لاستضافته بمصر، على أنه مخرج من المطالبات الرسمية التركية بتسليمه،وكان ذلك ثمرة الإعمال المندفع لقاعدة: "عدوّ عدوّي صديقي"، وابتسارًا لعديد من الاعتبارات السياسية والثقافية والقانونية في عامل واحد، هو: المكايدة السياسية. ومن الصحيح أن غولن –كما بدا من شواهد محدودة لكنها مهمّة– جزء من (بنية تنظيمية) ما عابرة لحدود الدولة، تحمل فكرة واحدة ذات أصول تاريخية، ربما تعود إلى القرن الأخير من عمر الدولة العثمانية،عندما عملت عدة أطراف للقضاء على الخلافة.

* المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق، مصر.

Why Does a Section of Arab Elites Side with Fetullah Gülen?

Memduh Al- Shaikh

ABSTRACT Some Arabs viewed the coup attempt in Turkey and its perpetrator, Fetullah Gülen, with little knowledge about present Turkey. This led to some Arabs hoping the coup succeeds. Gülen's appearance in many clips preaching solidarity, followed by Egypt's adoption of the rule "the enemy of my enemy is my friend" by offering to host Gülen to prevent his extradition to Turkey and the premature considerations of political, cultural and legal consequences of these actions have caused deceptive politics. Similarly, Gülen has appeared in some video clips as part of an "organizational structure" that has an idea that dates back to the last century of the Ottoman empire, when various factions worked to topple the Caliphate.

* International Centre for Studies, Consulting and Documentation, Egypt.

رؤية تركية
2016 - (5/3)
137 - 125

النخب الدولتيّة (الرسمية) العربية

عند محاولة رسم صورة لشخصية فتح الله غولن في الذهنية العربية –أو بتعبير أدق في ذهنية النخب الرسمية ومثقفيها– فلا مفرّ من الوقوف عند إشكالية رئيسة في شخص غولن تعدّ –بحسب اجتهاد كاتب الدراسة– المفتاح الرئيس لفهم شخصيته، ونعني بها ما نسميه: "التلفيقية المتمركزة حول: (الإلحاد الدولتي). وتلفيقية غولن جزء من السياق العام السائد في النخب المعاصرة في العالم العربي، فهي نخب اجتهدت (من دون نجاح يُذكَر) في التأرجح بين الجغرافيا القاهرة والتاريخ المكروه؛ فعلى خرائط الجغرافيا جاءهم الغرب منتصرًا وغازيًا وقاهرًا للأرض ومن عليها، فاختاروا التشبّه؛ بل الولع بالغالب، وتجاوزوا الاعتراف بالهزيمة العسكرية أو السياسية، أو بهما معًا؛ ليتحولوا إلى منسحقين في حضارة لم يعرفوا منها إلا القشور، ومنكرينحضارة لم يعرفوا عنها حتى القشور. ومع الجهل يلجأ المهزوم إلى الصور النمطية، والإدراك المبتسر؛ ليؤسس رؤيته لكل ما هو (كبير) في الدين والدنيا، على جهل أكبر بالدين والدنيا معًا.

وهذه الشرائح من النخبة العربية أصبحت ترى الذات والآخَر والعالَم من ثقب: (منع الآخَر من تحقيق ذاته وهويته)، بدلًا من أن يكون لهم – وللنظم السياسية التي تحالفوا معها خلال ما يزيد عن نصف قرن– مشروع للنهوض، حتى لو كان مشروعهم هذا يقوم على ما نرفضه، لكنهم ليسوا كذلك، إنما هم مقاتلون اختاروا أن يغمضوا أعينهم عن المستقبل وممكناته، ويرفعوا سيوفهم لأمر واحد فقط، هو منع عودة الرابطة السياسية الدينية بين مسلمي العالم، ومن ثَمّ محاربة أي وجود لقيم الإسلام في ساحة الشأن العام، من دون أن يكون لديهم في المقابل شيء يستهدفون إنجازه لأنفسهم أو لشعوبهم.

وهذه النخبة توزّعت العوامل المؤثرة في تكوين رؤيتها –المبتسرة– للعالَم ما بين الفكرة وضدّها، فوعيهم خليط من الأفكار الشمولية، والليبرالية، الفردية، والجماعية، الريفية، والمدنية... بدون أن يشعروا بأي إشكالية في هذه التلفيقية، وبعض هذه الأفكار تتابعت أو تزامنت في السيطرة على وعيهم. وفي هذه المتاهة كانت الصورة النمطية والأفكار المبتسرة الدليل الوحيد في مسار هذه التيه العظيم. وأهم العلامات في هذا التيه:

- تأليه الدولة.
- الحضور الديني (الشكلي) هو لخدمة (المصلحة العليا للدولة)، ولتيسير المزيد من سيطرة الحاكم على المحكوم.
- (المصلحة العليا للدولة)؛ للدولة مفهوم غامض مطّاط تستقلّ بتحديده نخبة مغلقة.
- الدين كلّه يقبل التأويل: عقيدة، وقيمًا،وأحكامًا شرعية، وإنّ الواقع –بصفته توازنات قوى سياسية– هو الفيصل، ومصدر المشروعية الوحيد.
- الفصل التامّ بين الدين والشأن العام (لا دين،الدين والسياسة).

- الدين علاقة بين العبد وربه، ومن ثَمّ لا مكان للدِّين في الحياة العامة.
- لا مكان للأحكام الشرعية في عالم اليوم.
- كلّ المسموح به لمعتنقي الأديان السماوية حريات فردية، ولا مشروعية لأيّ كيانات رسمية أو أهلية تقوم على أساس ديني. (وهذا المبدأ بالتحديد لم يتحقّق أبدًا).

إنّ هذه البنية الذهنية/ الفكرية جسر بين غولن وكثير من مشايعيه العرب الذين يرون العالَم بالنظرة نفسها تقريبًا، وإن كان غولن أكثر تمثيلًا لهذه الظاهرة التي يسميها المفكّر العربي الإسلامي الدكتور عبد الوهاب المسيري: (الحدودية والهامشية)، فهم على حدود التماسّ المشتعلة بين حضارتين وعالَمين، فلا هم أصبحوا جزءًا من الغرب، ولا احتفظوا بجذورهم في الشرق. وهو ما أسميه (في حالة فتح الله غولن): (إشكالية أرضروم).

إشكالية أرضروم

بحسب دراسة من الدراسات المهمّة عن فتح غولن وحركته: (نحو تنوير إسلامي: حركة فتح الله غولن)[1] للباحث حاقان يافوز، فإن غولن هو نتاج النشأة في أرضروم، يقول يافوز: "ولد غولن عام 1941 في قرية أناضولية صغيرة تسمى كوركوك، في مقاطعة أرضروم"[2]. ويكشف يافوز جانبًا من التقلّبات الحادّة التي شهدتها المنطقة في إطار الصراعات الكبيرة التي خاضتها الدولة العثمانية، والسمات التي تركتها في بنية غولن العقلية والنفسية. يقول: "كانت أرضروم في ما سبق الحدّ الشرقي للإمبراطورية العثمانية، وكانت منطقة صراع كثيف بين الإمبراطوريات: الروسية والإيرانية والعثمانية... وصارت المدينة وما حولها مركزًا لصراع عرقي ديني طويل"[3].

تلفيقية غولن جزء من السياق العام السائد في النخب المعاصرة في العالم العربي، فهي نخب اجتهدت (من دون نجاح يُذكَر) في التأرجح بين الجغرافيا القاهرة والتاريخ المكروه.

ويصل يافوز إلى الاستنتاج الأكثر أهمية، إذ يقول: "ونتيجة لهذه التجربة التاريخية يشعر سكان أرضروم أن الدّين لا يمكن أن يبقى إذا لم تكن الدولة قادرة على حمايته... باختصار هذه الظروف الحدودية أدّت إلى الشعور بأن وجود دولة قوية وجيش قوي لا غنى عنه لبقاء المسلمين والمجتمع الإسلامي. من هنا كان مفهوم غولن للإسلام مرتبطًا بفكرة القومية والوطن الواحد"[4]. ومن هنا جاء (تأليه الدولة) عند غولن.

تأليه الدولة انتقامًا من الخلافة

والحديث عن (الدولة) في خطاب الدولتيين المشرقيين في طبعتها الأوروبية، هو حديث تعبِّر عنه مصطلحات، هي:

- الدولة الحديثة.
- الدولة القومية.
- الدولة المركزية.

ورغم استخدامها في الكثير من الأدبيات بالمعنى نفسه إلا أنها ليست متطابقة على الإطلاق.

فهذه (الدولة) الأوروبية ولدت من خلال متغيرات ثلاثة: فقد وضع صدور كتاب (الأمير) لنيكولا ميكيافيللي أساسها الأخلاقي، ووضعت الثورة الفرنسية أساسها الفكري، وهي وُلِدت سياسيًّا بعقد (صلح وستفاليا)[5].

وأهم ما شهده هذا العقد تجريد السلطة البابوية من حق التدخل في شؤون الكيانات السياسية الأوربية، ومن ثم تأسيس العلمنة السياسية في عالم الغرب. وقد أسفرت التجربة القاسية مع السلطة البابوية عن مثل هذا الانقلاب الفكري، فالتجربة لم تنتهي بمعاقبة السلطة الدينية فقط؛ بل معاقبة الدين ذاته، حيث لم يُفَرَّق بين الدين بصفته عقيدة وبين الممارسين الذين أساؤوا استخدامه، فكان الدين هو الضحية، حيث سُحِب من الحياة سحبًا مُطلقًا، وكان يُراد له أن يكون أبديًّا. وجاءت الثورة الفرنسية 1789م لتؤسّس الفصل التامّ النهائي بين الدين والدولة، وأصبحت المرجعية السياسية للكيانات السياسية الأوروبية الحديثة كافة، بحيث لم تعد قضية الانفصال بينهما مما يقبل النقاش. وربما أصبحت مستقرّة في العقل والوجدان الغربيين بحيث لم تعد موضع نقاش.

"ولم يظهر مفهوم الدولة الحديثة في الفكر العربي والإسلامي دفعة واحدة، بل تشكَّل على مراحل، وأدرك النهضويون من الدولة الحديثة (التنظيمات)، واقتصر وعيهم عند هذا

الحدّ، ومع الكواكبي (وربما أيضًا رشيد رضا) ظهر مفهوم (المواطنة) التي تعتمد على الرابطة الجغرافية السياسية، وهو من أهم مفاهيم الدولة الحديثة[6] . ومن الناحية التاريخية يتفق قِطاع كبير من المؤرخين على أن مفهوم الدولة الحديثة ظهر مع كتابات مكيافيللي (القرن16). وهذا يعني أن المفهوم المحدّد للدولة لم يظهر في العصور الوسطى ولا ما قبلها، رغم أن كلمة (دولة) ظهرت في الفكر السياسي الإسلامي وغيره، لكنها كانت مصطلحًا فضفاضًا يُرَاد به عدّة مفاهيم، فأحيانًا هي مرادف للحكومة، أو النظام السياسي،أو كوزارة، أو قضاء، أو زعامة وقيادة، (دولة بني مروان، بني عباس، بني الأحمر...)"[7].

وانطلقت الدولة الحديثة على هذا الفراغ الأخلاقي تخلق في داخلها قيمها الخاصة بها (منطق الدولة)، الذي مثّل اعتبارات تعلو على كلّ قيمة أخلاقية باسم (مصلحة الدولة العليا). ففي البداية جرى تجميع البشر لا على أساس المبادئ بل على أساس المنفعة الذاتية، ثم أصبح عليهم بعد ذلك أن يقبلوا حكم المصلحة الذاتية الجماعية للمؤسسة الجديدة التي خلقوها[8].

وبحسب الفيلسوف الألماني هيغل فإن الدولة (أو السلطة العليا فيها) هي المرجعية الأخيرة فيما يتعلق بالأخلاق والقيم. فالدولة عند هيغل ليست فقط الحكم، بل هي التجسيد الحي للحقّ والعدل، والدولة ليست صوت الله فحسب، بل هي (الله متجسـّدا). وبما أن الله (أو الروح) قد تجلّى وظلّ يتجلّى في التاريخ، وبما أن الدولة هي غاية التطور التاريخي ونهايته، فإن الدولة تكون التجلّي الأسمى للحقّ والعدل. ومثل كلّ حقيقة تاريخية أخرى، فإن شرعية الدولة تنبع من وجودها نفسه، لا من حكم يصدر من خارجها. وبالجملة فإن الحق والقوة متلازمان، فما تفرضه القوة حقّ، والحقّ ما تفرضه القوّة[9].

وبحسب الباحث عمار بن حمودة فإن هيغل عدّ "الغاية العقلية للإنسان هي الحياة في دولة"، ولهذا فإنّه يصوّرها بأنّها (مسيرة الله على الأرض)، "فهو يرى الدولة انعكاسًا لقداسة إلهيّة"[10].

وعن هذه الدولة المتألِّهة يدافع ([الدولتيون]العرب)، ومن ثَمّ يجدون أن تضامنهم مع غولن حتميّ.

ويحفل الخطاب العامّ في العالم العربي بالكثير من أدبيات الصراع الذي لا مفر منه بين: (الدولة الوطنية) و(الخلافة)، ومن أمثلة ذلك، ما كتبه الدكتور مجدي الجزيري في جريدة الأهرام القاهرية عن الدولة والحرية عند هيغل حيث يقول:إن الدولة لم تعد "مجرد بُعد من أبعاد التاريخ، بل بدت لديه جوهر التاريخ وروحه، بمعنى أنه لم يعد بمقدورك أن تفصل بين التاريخ والروح والحرية والدولة عند هيغل، فثَمّة كيان واحد يواجهنا، ولو حاولت أن تقلّل من شأن بعد واحد من أبعاد هذا الكيان، فكأنك تقلّل من شأن بقية الأبعاد كلها. وهكذا، فإنه إذا كانت محاولة يراد بها النيل من الروح أو الحرية أو التاريخ مرفوضة وباطلة ومستهجنة، فإن كل محاولة يُراد بها هدم الدولة تبدو بدورها في دلالتها العامة محاولة للنيل من التاريخ والروح والحرية".

ويضيف الدكتور مجدي الجزيري: "فلم تعد الدولة عند هيغل تمثيلًا لروح العالم بل بدت لديه تجسيدًا صادقًا لروح العالم"، والمصلحة "الخاصة للدولة هيأهمعامل يحدد توجهاتها، فالدولة هي الروح التي تعيش في العالم، وتحقّق نفسها فيه بواسطة الوعي، وليست الدولة مجرد خليط من إرادات الأفراد المرتبطة ببعضها بقيود قانونية، أو بعقود اجتماعية، أو بعقد يُلزِم بالرضوخ والخضوع والتبعية. الدولة عند هيغل شأنها شأن جميع منطلقاتها الأخرى، تتمتع بوحدة عضوية، وحدة بين نقائض تسمح بأعظم المتعارضات وتتطلبها، ولكنها في نهاية المطاف تعبّر عن روح واحدة"[11].

هذا الخطاب الصوفي الحلولي التلفيقي أحد مفاتيح فهم الخلط في ذهن الكثير من المثقّفين العرب بين الخطاب المراوغ الذي يستخدمه غولن وبين الرؤية الإسلامية لـ(حزب العدالة والتنمية)، وهو في الوقت نفسه يفسر سبب لجوء غولن إلى استخدام (المنطق الصوفي)، وبخاصة الحلولي، فهذا الخطاب هو البنية الأكثر ملاءمة لمشروع غولن:

- التأويل الجامح.
- التطويع الإبليسي للأتباع على قاعدة أن المريد يجب أن يكون بين يدي شيخه كـ(الميت بين يدي مغسّله)، وهي حدود للطاعة لا يقبلها دين سماوي.
- التقية والخفاء.

وانطلاقًا من القناعة بمنطق التقية والخفاء كان اللجوء إلى خيار: (الكيان الموازي).

دولة التنظيم السري (Secret Society State)

في سلسلة مقالات متميزة تتسم بالعمق الشديد لخّص المفكر التونسي المعروف البروفيسور أبو يعرب المرزوقي جذر الفشل الذي مُنِي به مشروع (التنوير المشرقي): مشروع النخب ذات الخطاب التنويري التي تحالفت مع الاستبداد، وقد كان عنوان هذه السلسلة: (البهائية المتخفية والتحديث الاستبدادي)،[12] وهذه الرؤية التي سيطرت على شرائح واسعة من نخب ما قبل الربيع العربي كانت أحد الدوافع الرئيسة لتضامن هذه الشرائح مع فتح الله غولن، فهو اختار المنطق والبنية نفسيهما اللتين استخدمتهما نخب التنويرين المتحالفين مع الاستبداد. وللأمر جذر أبعد يعود إلى حقيقة موقف الإسلاميين مقابل موقف العلمانيين (مع ما في المقابلة من تجاوز) تجاه مفهومَي: (المجتمع المغلق)و(المجتمع المفتوح)، فالتنويريون العرب نجحوا لعقود في تسويق أنفسهم –بالتّضاد التامّ مع الحقيقة– بوصفهم المدافعين الرئيسين عن المجتمع المفتوح، بينما هم في الحقيقة يعملون بشكل منظّم لإعادة إنتاج تقاليد (طبقة الكهنة المغلقة).

وتكشف بنية هذه الفكرة قصة أوردها الكاتب الأمريكي ريتشارد نوكس في مشاركة له في كتاب: The Book of Time يقول:

"لاحظ الفلكيون المصريون، طيلة مئات من السنين التي سجّلوا فيها الأحداث الفلكية، أن كسوف الشمس وخسوف القمر يتبعان دورة تستغرق ثمانية عشر عامًا وأحد عشر يومًا، تقريبا لكي تكتمل... وكل خسوف، يشكل جزءًا من سلسلة من الخسوفات تتغير فيها تدريجيًّا مواقع: الشمس والقمر والأرض بالنسبة إلى بعضها، وذلك نتيجة تغيُّر بطيء غير منتظم... وهذه الدورة -وتُسمَّى (الساروس)- احتفظ كهنة المعابد الفرعونية بأسرارها ضمن سائر المعارف العملية الأخرى". ويستطرد نوكس: "ومنحتهم هذه المعرفة بالأسرار قوى مدهشة، ظاهريًّا، على التنبؤ؛ بل على التحكم الظاهري في السماوات، إذ كان بوسعهم أن يتنبؤوا بأن الإله الشمس سوف يحتجب نتيجة المعاصي التي يرتكبها الشعب. فإذا ما حدث الكسوف أمكن الكهنة أن يبشّروا باستعادة الشمس، وفق شروطهم الخاصة!"[13]

التنويريون العرب نجحوا لعقود في تسويق أنفسهم -بالتّضاد التامّ مع الحقيقة- بوصفهم المدافعين الرئيسين عن المجتمع المفتوح، بينما هم في الحقيقة يعملون بشكل منظّم لإعادة إنتاج تقاليد (طبقة الكهنة المغلقة).

واقتضى هذا -كما في حالة غولن- إنشاء تنظيم سري يعمل في الخفاء، وإنتاج خطاب مراوغ يستخدم آليات التأويل الصوفي بأمل إنتاج (إسلام تنويري) يرتبط بـ(الأرض): (الجغرافي/ الدولة)، يستخدم ما هو (سماوي) لخدمة أغراض (الدولة المتألّهة)، وهذه المحاولات المتشابهة: (الإسلام المصري، الإسلام العربي، الإسلام...) تجعل المكان نقطة التأسيس، وتتماهى مع مقولات مشابهة في التصور الغربي،كمقولة: (الإسلام الأوروبي)، من حيث هو عمل واع مخطط لتأويل القيم والأحكام الشرعية؛ لتحويلها من (حقائق كونية) مطلقة ينبغي الانطلاق منها لصياغة رؤية الفرد والجماعة للكون والذات والآخر، إلى مفهوم (سكوني) يشرّع الفرد فيه لنفسه، ويجعل الدين مجرد وسيلة للحفاظ على تماسك (الجماعة الوطنية). قديما، في اليونان، كانت الديانات اليونانية جزءًا من البناء السياسي، فلكل مدينة آلهتها، وآلهة كل مدينة هم بناتها وحماتها، وتكريمهم واجب وطني، وبين (العابد) و(المعبود) عواطف ثلاث:

عرفان الجميل.

والمصلحة الخاصة.

وخوف العقاب.

وكان الإلحاد في حقهم خيانة للوطن. وفي هذا المناخ ظهرت تيارات دينية كان هدفها تجاوز حدود المدينة إلى العالم، من خلال دعوة الناس جميعًا، وتجاوز البناء السياسي للمدينة، والسعي لبناء ماعدّوه حياة روحية أسمى وأقوى[14].

وهذا يعني أن يتحول المطلق إلى نسبي، وأن يتحول النسبي إلى مطلق، من خلال التأويل الجامح، وتكريس الدلالات الحلولية للأفكار الصوفية. وهنا تجب التفرقة الواضحة بين

التصـوف بصفته توجهًا أخلاقيًّا، والتصوف بصفتهتصورًا فلسـفيًّا يأخـذ (البنية)،ويفرغ فيها قناعاتـه التي لا صلة لها بالتصوف حقيقة إلا الاسـم وبعض السـمات الشـكلية المنتقاة بمنطق تلفيقي[15].

غولن وتحطيم أيقونة (الإرهاب الإسلامي)

كانـت محاولة الانقلاب الفاشـلة منعطفًا سياسـيًّا/ معرفيًّا مهمًّا، سـيغير في الأجل المنظور بعضًا مما كان يبدو (أيقونات تحليلية) لها رسـوخ يقترب من القداسـة (إن كانت ثمة قداسـة في العلـم الحديث). فقد شـكّل اتّهام فتح الله غولن بالمسـؤولية عن محاولة الانقلاب سـابقة تُعدّ الأولى من نوعها التي تُتَّهَم فيها حركة طالما وُصِفَت بـ(التنويرية) باسـتخدام سلاح الانقلاب العسكري.

ومن ناحية الحقيقة التاريخية، يُعدّ جمال الدين الأفغاني (1839 – 1897م) أول من وضع بذرة العمل الثورى / الراديكالى بشكله الحالى في الثقافة الإسلامية الحديثة، بوجهيها: العمل السِّريّ والتغيير بالعنف[16]. ووقعت في مايو 1896م أول عملية اغتيال بأمر من زعيم ديني في تاريخ إيران، وربما الشرق الأوسط، حيث اغتال ميرزا رضا كرماني، من طلاب العلوم الدينية بتاريخ الأول من مايو 1896م أشـهر ملوك السـلالة القاجارية الحاكمة في إيران، ناصر الدين الشاه، وذلك بأمر من سيد جمال الدين الأفغاني الذي كان يرابط في اسطنبول حينها. وبحسب هيلاري باركر، الخبيرة في الشـؤون الإيرانية والأستاذة بجامعة كامبريدج البريطانية في كتابها: (تاريخ إيران)، فإن "اغتيال ناصر الدين شاه القاجاري كان (سياسيًّا) بامتياز لو قارناه بالملوك

الذين سبقوه في التعرض للقتل في تاريخ إيران، حيث سقط هؤلاء ضحايا للصراع على السلطة بين الأسر الحاكمة أو الأسر التوّاقة للحكم، لا بفتوى من مرجع ديني كجمال الدين الأفغاني، الذي كان ينشط بهدف إيجاد تغيير في العالم الإسلامي بأسره، ويئس من جعل الملك في خدمة مشروعه". وتقول باركر بخصوص الهدف من وراء الاغتيال: "إنه كان اغتيالًا ثوريًّا... بدوافع سياسية عقائدية...، وتم على يد رجل ثوري سبق أن تتلمذ على يد رجل عقائدي-سياسي... وفي التحقيقات التي قامت بها شرطة طهران، التي كانت تُسمَّى حينها (نظمية)، حصل المحققون على إثباتات مادية تؤكد ارتباط ميرزا رضا كرماني، منفّذ الاغتيال بمجموعة منظمة كان يقودها سيد جمال الدين الأفغاني من إسطنبول"[17].

"ووفق كتاب حاقان يافوز: (نحو تنوير إسلامي: حركة فتح الله غولن)، فإن أحد المفاهيم الرئيسة في رؤية غولن: "عقلنة الإسلام السياسي وعلمنته"، على أمل خلق توافق بين الحداثة والإسلام. ويوصف غولن أيضًا بامتلاك وعي كبير بدور (الدولة)،وهو ما سبقت الإشارة إليه، لكنه في الحقيقة: (ثوري صوفي) مؤمن بالقلة ذات الطبيعة الاستثنائية، وتلك (أيديولوجيا) أصبحت تشكل قطاعًا عريضًا في كثير من الثقافات. ويعكس ذلك قول غولن: "أريد حفنة من المجانين، يثورونعلى كل المعايير المألوفة"[18].

"وفي الحقيقة، فإن الصلة بين الإرهاب وكل من التنوير والتصوف والثورية، مما يجب منحه أهمية أكبر من دراسة علاقة الإرهاب بالتشدد الديني. وفي الذكرى المئتين للثورة الفرنسية 1989م، شهدت فرنسا جدلًا أثارته أطروحة المفكر والمؤرخ الفرنسي رينالد سيشار عن(معارك فاندي)1793 بوصفها جريمة (إبادة جماعية) ارتكبتها الثورة الفرنسية. وقد توالى سيل الكتابات التي تربط الثورة الفرنسية بالإرهاب الحديث، وربما كان من أهمها كتابا: (القاعدة: معنى أن تكون حداثية) للأكاديمي البريطاني جون غراي (2003)، و(الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية) للمؤرخ البريطاني ديفيد أندرس (2005)، وعليه لم يكن غريبًا أن تتوالى الأدبيات التي تُعدّ تنظيمًا، مثل (داعش) ثمرة الرؤية الستالينية في المقام الأول. ومع تحولات منها قرار (منظمة التعاون الإسلامي) اعتبار حركة (خدمة) التي يترأسها غولن إرهابية، تكون (أيقونة الإرهاب) قد تحطمت، فهو ليس إسلاميًّا ولا سلفيًّا، ولا...، وبعض التنويريين... انقلابيون!"[19]

وهذا من بين ما يسعى مناصرو غولن من المثقفين العرب (التشويش) عليه بكلّ ما أوتوا من من قوة، حتى تسود الصورة النمطية التي تجعل (الإسلام السياسي) الأيقونة الوحيدة للإرهاب.

رجل الظلّ وخيار التّقية

جاءت مغامرة غولن -التي أرجّح أنها الأخيرة- لتضع موضع التساؤل والشّك صورة نمطية تربط الحركات الإسلامية بالعمل السري، وتتهمهم باللجوء إلى التقية، وهي صورة نمطية تربط خصومهم بالعلانية والشفافية، ويؤدّي الإلحاح الإعلامي دورًا رئيسًا في تكريس الفكرة.

الصلة بين الإرهاب وكل من التنوير والتصوف والثورية، مما يجب منحه أهمية أكبر من دراسة علاقة الإرهاب بالتشدد الديني.

وثمة حقائق كثيرة تناقض هذه الصورة وتنقضها، ومن نماذجها المثيرة ما كتبه المؤرخ الدكتور ألماويتلن واصفًا مشهد عزل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، يقول: "كان الجنود الذين زحفوا تحت إمرة (شوكت) يظنون أنهم يؤدّون رسالة عليا، كانوا يعتقدون أنهم زاحفون لحماية الكائن المقدّس المقيم في يلدز (السلطان عبد الحميد)... وحتى يوم 21 من أبريل، وجنوده على أقل من ثلاثين ميلا من العاصمة، كان شوكت لا يزال يهتف بحياة السلطان"[20]. والعبرة هنا بمنطق التخفّي الذي استخدم على نحو واسع لتغيير التاريخ.

ولغولن تسجيل مصور ظهر عام 1999 ميدعو فيه أتباعه إلى اختراق مؤسسات الدولة الرئيسة: "لا بد أن تتسللوا داخل شرايين النظام، حتى تتمكنوا من زمام السلطة، ويجب عليكم التحلّي بالصبر؛ حتى تجتمع كافة المؤسسات الدستورية إلى جواركم". هكذا يقول غولن في التسجيل[21].

ويرسم الإعلامي البريطاني تيم فرانكس، مقدم برنامج (نيوزأور) لبي بي سي (صورة قلمية) لهذا الجانب من شخص غولن وحركته، يقول: "...ويتربع غولن، كرجل دين، على عرش حركة تضمّ ملايين الأنصار، يمتلكون مليارات الدولارات، تُضخّ في عدة مدارس، تحقّق نجاحًا منقطع النظير في 150 دولة حول العالم، وفقًا لجيمس جيفري السفير الأمريكي السابق لدى تركيا. تقول الصحف العالمية إن الغموض يسيطر على حياة غولن وحركته"، "ورغم موافقته على إجراء المقابلة، فاجأ رجل الدين التركي الجميع بقدر كبير من المراوغة، خاصةً فيما يتعلق برجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء التركي... وليس من الغريب أن يسود اللقاء مع شخصية مؤثرة إلى هذا الحد إحساسًا بالغموض، خاصة في ضوء الصفات التي تستخدمها الصحف العالمية في الحديث عن فتح الله غولن وحركة (حزمت)".

ويضيف تيم فرانكس: "تضمنت تلك الصفات التي روجتها وسائل صحفية: (سري) وفقًا لمجلة (فورين بوليسي)، و(ظلالي) وفقًا لصحيفة (إيكونوميست)، و(غامض) وفقًا لصحيفة (لوس أنجلوس تايمز) و(محرِّض) بحسب موقع (ويكيليكس)... وعن التوترات المتصاعدة بين تركيا وإسرائيل على مدار السنوات الاخيرة، قال غولن: "إنهم يحاولون تصدير صورة تشير إلى أنّنا حركة موالية لإسرائيل، وأننا نضع مصلحتها في الاعتبار قبل مصلحة الأمة، لكننا لسنا كذلك، نحن فقط نقبلهم كشعب، وكجزء من شعوب العالم... أما السؤال الذي أثار الحيرة طرحه تيم فرانكس على عدد من أتباع غولن فكان: لماذا وافق غولن على إجراء هذه المقابلة؟، وجاءت الإجابة على السؤال غير واضحة على الإطلاق، وفقًا لفرانكس"[22].

ومن أبرز ما يثير الاستغراب حول مواقف فتح الله غولن موقفه عندما كانت الجماعات والحركات الإسلامية تحتج على حظر الحجاب في الجامعات في ثمانينات القرن الماضي، إذ

قـال فتـح الله غولن إن لبس الحجاب ليس من أصول الإسـلام، بل قضيـة فرعية، وطلب من الطالبات خلعه لمواصلة دراستهن.

خطر غولن على العالم العربي

المتضامنـون مـع فتح الله غولن من النخب العربية يشـكّلون صوتًا له وجود أكبر نسـبيًّا في وسـائل معظم المنابر التقليدية (الرسـمية والخاصة)، بينما الصوت الآخر الذي يدرك خطورة هذا النموذج له وجوده الأقلّ ظهورًا، لكن –بفعل متغيّرات أحدثها الربيع العربي– له جمهوره الكبير خارج الفضاءات التي تُحْكِمُ السلطة وحلفاؤها قبضتها الحديدية عليها.

وعلى سـبيل المثال، "يرى الباحث حسـين الرواشـدة، في بحث له أن (حركةغولن)تشكّل خطرًا لافتًا على الدول العربية، مشيرًا إلى أنها في الجانب الديني تقدّم تصورًا مختلفًا للدين يقوم على (التقية) لتحقيق أهدافهامن دون النظر إلى أحكام الحلال والحرام (الحجاب ودفع الرشوة مثـلًا)، وهـذا الأمـر يثير مزيدًا من الأسـئلة حول (تحولاتهـا) على صعيد الانتشـار في البلدان العربية. ويوضح الرواشـدة، أنه حين ندقّق في طبيعة الجماعة وانتشـارها، نكتشـف من خلال قراءة فاحصة لأهدافها وتجربتها أن ثمّة خمسة عوامل –على الأقل– تقف وراءها:

أوّلًا: تمييـع حالـة (التديـن) لمواجهة حركة الديـن في المجال السـياسي والعام، فهي بصفتها حركة صوفية تتبنى فكرة (الإسلام الروحي)، وتعتقد أنها تستطيع من خلال التغلغل في المجال الاجتماعي أن تصل إلى مرحلة (التمكين) السـياسي، وهذا ما حدث تمامًا في تجربتها الحالية.

ثانيًا: نزع حالة (العداء الديني) في عالمنا العربي والاسـلامي للمشروع الصهيوني، وتعميم (التطبيـع) مـع المحتل تحـت ذريعة أن الوقت غير مناسـب لمواجهتـه واسـتعدائه، وقد تمثّلت هـذه النزعـة في تبرع غولن السـخيّ لأحد المـدارس التبشـيرية (2 مليـار دولار) ولقاءاته مع الحاخامات، وفي علاقة الجامعات التي انشـأتها (الجماعة) مع الجامعات الإسرائيلية، وفي إدانة غولن لسـحب السـفير التركي من تل أبيب، وفي رفضه لسـفينة مرمرة حين توجهت لمسـاندة أهل غزة المحاصرة.

ثالثًا: التأسـيس لمجال ديني وسـياسي خـارج تركيا لخدمة الحركة مسـتقبلًا إذا ما تجاوزت مرحلـة (التمكين)، وسـيطرت (كما كانت تخطط) عـلى مفاصل الدولة التركيـة، وهذا المجال بدأته في الدول التي يوجد فيها مسلمون من أصول تركية،أو غير عربية، ثم وصلت إلى المغرب العربي، وانتهت بالمشرق العربي.

رابعًـا: اسـتخدام مناطق النفـوذ الديني والثقافي، بما تمثله من شـخصيات دينية وسياسـية للاستقواء على المشروع الذي يمثله أردوغان، وتوظيف ذلك في معركة (الصراع) على السلطة بـين (الخدمـة) و(حزب العدالـة والتنمية)، أو بين العثمانيّـة التي يدعو إليهـا أردوغان وتركيا (القوميّة) التي يبشّر بها فتح الله غولن.

خامسًا: تخويف العالم العربي من خطر الإسلام السياسي، واستخدام ذلك مظلّة للعبور والتغلغل من جهة، وتطمين الدوائر السياسية العربية بأنها جماعة دعوية ترفع شعار (الإسلام الاجتماعي) من جهة أخرى، ثم إغراء المجتمعات العربية بالمشتركات والمصالح التي تحملها بديلًا (للإسلام السياسي) الذي أصبح غير مرغوب فيه و(مطلوبًا) في هذه المرحلة"[23].

خاتمة:

إنّ هذا التصوّر البانورامي الموثَّق بالأدلّة كشف النّقاب عن الرجل اللغز فتح الله غولن وتنظيمه، ولاسيّما تعاطيه مع الذهنية العربية التي تباينت مواقفها تجاهه، وكشف كذلك ما أسميناه (التلفيقية المتمركزة) و(الإلحاد الدولتي).

إن الرابط بين غولن ومشايعيه العرب هو اتّحاد نظرتهما إلى العالم من حولهما،التي تتطابق إلى حد كبير مع ما أطلق عليه المفكر المصري عبدالوهاب المسيري (الحدودية والهامشية)، لكونهما يسيران خلف مشروع واحد وغاية واحدة، وهو ماأطلقنا عليه في صلب الدراسة (إشكالية أرضروم).

وبيّنتْ إشكالية تأليه الدولة التي انتهجها غولن،أنها كانت مخاضًا تقليديًّا لرؤيته بحتمية وجود دولة قوية وجيش قوي لاغنى عنه لبقاء المسلمين والمجتمع الإسلامي في نسج العلاقة الوثيقة بين مفهومه للإسلام وفكرة القومية والوطن الواحد، وهو مادفعه إلى أن ينتهج خطابًا صوفيًّا حلوليًّا تلفيقيًّا يختلف جملة وتفصيلًاعن خطاب حزب العدالة والتنمية ورؤيته الإسلامية، وهو ما فسّره لنا بعد ذلك لجوؤه إلى العمل السري والتحرك في الخفاء،مع إنتاج خطاب مراوغ يستخدم التأويل الصوفيّ.

الهوامش:

1. نحو تنوير إسلامي: حركة فتح الله غولن. م. حاقان يافوز. ترجمة: شكري مجاهد. الناشر: منتدى العلاقات العربية والدولية. قطر. الطبعة الأولى. 2015.
2. نحو تنوير إسلامي. مصدر سبق ذكره. ص36.
3. نحو تنوير إسلامي. مصدر سبق ذكره. ص37 – 38.
4. نحو تنوير إسلامي. مصدر سبق ذكره. ص40.
5. يقصد بـ(صلح وستفاليا) تلك الاتفاقية التي عقدت عام 1648م ويَعدّها المؤرخون البداية الحقيقية للعصر الحديث. وقد أنهى (صلح وستفاليا) حروبًا ضارية بين الدول الدينية والعلمانية في أوربا. وأسس (الدولة القومية الحديثة). وكانت الاتفاقية نتيجة غير مباشرة للإصلاح الديني الذي قاده مارتن لوثر. فأسس المذهب البروتستانتي. وقد وُقّعت الاتفاقية بعد سلسلة من الحروب الدموية. ليس فقط بين البابا والبروتستانت. بل أيضًا بين طوائف البروتستانت أنفسهم. وأكبر دليل على ذلك اندلاع (حرب الثلاثين عامًا) 1618 – 1648. التي مثّلت عراكًا شرسًا بين اللوثريين والكلفانيين. وهي جماعة نشأت من رحم الحركة اللوثرية. وانشقت عنها فيما بعد. وهي حرب لم تضع أوزارها إلا بعد انعقاد مؤتمر كبير. سُمّي

(صلح وستفاليا)، نسبة إلى منطقة وستفاليا الواقعة في غرب ألمانيا، حيث شارك فيه 121 مندوبًا من ممثلي الحكومات الأوربية.

6. الإسلاميون والوعي الوسيط بالدولة الحديثة، مقال، عبد الرحمن الحاج، 2006/07/15، جريدة الغد الأردنية.
7. مفهوم الدولة، مقال، الدكتور عبد الرحمن الحبيب، جريدة الجزيرة السعودية، 2005/9/12.
8. المصدر نفسه، ص11 – 12.
9. المصدر نفسه، ص27 بتصرف واختصار.
10. الدولة والمقدّس، مقال، عمار بنحمودة، 2013/6/6، موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرابط: https:// goo.gl/sejOO2
11. الدولة والحرية لدي هيغل، مقال، دكتور مجدي الجزيري، جريدة الأهرام القاهرية، 2013/11/24.
12. البهائية المتخفية والتحديث الاستبدادي (1، 2، 3)، الدكتور أبو يعرب المرزوقي، سلسلة مقالات، جريدة القدس العربي اللندنية،28 /10 /-1999 29 /10 /1999–30 /10 /1999.
13. فكرة الزمان عبر التاريخ، مجموعة مؤلفين، إشراف:جون جرانت وكولن ويلسن، ترجمة: فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1992،عدد 159،ص 82–83.
14. تاريخ الفلسفة اليونانية، الدكتور يوسف كرم، السلسلة الفلسفية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، الطبعة السادسة، 1976،ص5 – 6 بتصرف.
15. في حوار أجريته مع المفكر والمؤرخ المصري المعروف طارق البشري وضع هذه التفرقة المهمّة بين الظاهرتين، وعدّ هذا النوع من الخطاب الصوفي: "تفلسفًا". يمكن الرجوع إلى:طارقالبشري: القاضي... المؤرخ... المفكر... وداعيةالإصلاح،ممدوحالشيخ،سلسلةأعلام الفكروالإصلاحفيالعالمالإسلامي،مركزا لحضارةلتنميةالفكرالإسلامي،بيروت،الطبعة الأولى، 2011،ص 226
16. من قضايا العلاقات الفارسية العثمانية: دور جمال الدين الأفغاني في حادث اغتيال شاه إيران عام 1896، حسين أحمد أمين، جريدة الحياة اللندنية، 2002/11/15، ص15. وفيه –للمرة الأولى بالعربية– نصوص مقتطفات من التحقيقات الرسمية الإيرانية مع القاتل (ميرزا محمد رضا الكرماني).ذكرى أول اغتيال للإسلام السياسي قبل 118 عامًا بإيران، الموقع الإلكتروني لقناة العربية على الإنترنت، 2014/5/1، سعود الزاهد، الرابط: https://goo.gl/UoV6iy
17. المرجع السابق.
18. غولن التنوير متّهمًا بالإرهاب!، ممدوح الشيخ، مقال، جريدة الحياة اللندنية، 2016/8/6
19. غولن التنوير متهمًا بالإرهاب!، مصدر سبق ذكره.
20. في المسألة الإسلامية المعاصرة: ماهية المعاصرة ، المستشار طارق البشري، دار الشروق، مصر، دون تاريخ، ص18.
21. (الغارديان): من يكون فتح الله غولن الذي يتهمه أردوغان بالوقوف وراء المحاولة الانقلابية؟، من عبدالرحمن النجار، 2016/7/16، نقلا عن موقع ساسة بوست، الرابط: president,turkeys,man,the,is,who,gulen,http://www.sasapost.com/translation/fethullah /attempt,coup,for,blames
22. مقابلة حصرية مع فتح الله غولن ثاني أقوى رجل في تركيا نفوذًا، تيم فرانكس، مراسل بي بي سي، 2014/1/27، الرابط: fethullah_gulen_exclusive_140127/01/http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2014
23. من هو (غولن)... ومن هم جماعة (الخدمة) في تركيا؟، إعداد وتحرير: تركيا بوست، الرابط: 10675,post.net/p,http://www.turkey